﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر: 59]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا حكَى القرآنُ الأقوالَ الثَّلاثةَ للنَّفْسِ المُصِرَّةِ على المعصيةِ والكُفْرِ والشِّرْكِ، وكانَ الثّالثُ مُشْعِرًا بأنَّه آخِرُ ما تقولُه النَّفْسُ في هذا السّياقِ، بتمنّي الرُّجوعِ إلى الحياةِ الدُّنْيا، وكانَ ثاني هذه الأقوالِ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مُقرِّرًا كذِبَها على اللهِ؛ لأنَّ معناه أنَّ اللهَ لم يهدِها، فلم تكن مِن المتقين، وكانَ للكذِبِ عليه - ﷺ - حضورٌ قويٌّ في حديثِ السّورةِ عن أهلِ الشِّرْكِ والكفرِ، كما في قوله تعالى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [الزمر: 32]، شرَع القرآنُ في الجوابِ على ذلك الكذبِ في هذه الآيةِ.

لَمّا كانَ كذِبُ النَّفْسِ لافِتًا كالشُّبْهةِ؛ كانَ مِن البلاغةِ والحِكْمةِ الرَّدُّ عليهِ

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُقرِّرُ هذهِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ هذه النَّفْسَ الكافرةَ قد جاءتها آياتُ اللهِ الكثيرةُ الدّالَّةُ على الألوهيَّةِ الحقَّةِ، والتي مِن شأنها أنْ تُقيم الحُجَّةَ عليها، فلم تأتِها آيةٌ واحدةٌ، بل آياتٌ، ولكنَّها كذَّبَتْ بها، ورفضَتْها بكُلِّيَّتِها، واستكبرَتْ عليها، وعلى الرَّسولِ الذي جاءَ بها، فكانت مِن الرّاسخينَ في مقامِ الكفرِ، فاستحقَّتْ ذلك العذابَ.

في هذه الآيةِ جوابٌ على بعضِ المعاني المُضَمَّنةِ في الأقوالِ السّابقةِ

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### سِرُّ تخصيصِ القولِ الثّاني للنَّفْسِ بالرَّدِّ:

هذه الآيةُ الكريمةُ: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ ردٌّ على قولِ النَّفْسِ في قوله تعالى على لسانِها: ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وإنَّما جاء الرَّدُّ على قولِها هذا خاصَّةً، فلم يأتِ ردٌّ على

الكَذِبُ على اللهِ شُبْهَةٌ لا ينبغي أنْ يُسْكَتَ عنها بحالٍ

قولِها قبلَه، ولا على قولِها بعدَه، وكان الرَّدُّ تكذيبًا لها في دَعْواها؛ لأنَّها وهي في هذا المقام الحرِج كذبت على الله، وكان حالُها كحال الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: 47]، أو الذين أقسموا لو جاءهم رسولٌ؛ ليكونُنَّ أهدى مِن إحدى الأمم، وقد أرسل اللهُ رسلَه، وأنزل كتبَه، وجاءتهم آياته؛ لكي لا يكون لأحدٍ على الله حُجَّةٌ، وهذه النَّفْسُ الآن تكذب، وتتجاوز هذا كلَّه، ولكَ أنْ تعدَّ قولَها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِمّا كذبوا فيه على أنفسِهم، وهم يعلمون أنَّهم يكذبون[1].

### بلاغةُ موقِعِ الآيةِ:

عـــدمُ اقـــترانِ الجوابِ بما هوَ جـــوابٌ لـــهُ هو الأبَـــرُّ بكَـشْـفِ حالِ النَّفْسِ في سياقِها

إذا كانتْ هذهِ الآيةُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ ردًّا على قولِ النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ معناه: ما هُديتُ، فلم أكُ مِن المتقين، فلماذا لم تجئ بعدَ آيةِ هذا القولِ، فتفصل بينَ القولِ الثّاني والقولِ الثّالث؟ أو لماذا لم يكُن هذا القولُ الثّاني في النَّظْمِ القرآنيِّ القولَ الثّالثَ؟ لأنَّ الظّاهرَ أنْ يُقْرَنَ الجوابُ بما هو جوابٌ له.

وجوابُ السُّؤالِ الأوَّلِ: أنَّ الفَصْلَ بينَ القولَيْنِ الثّاني والثّالث بجوابِ الثّاني فيه تَبْتيرُ النَّظْمِ بالجَمْعِ بينَ القرائنِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الآياتِ الثَّلاثَ التي هيَ مقالةُ النَّفْسِ، كأنَّها نَفْثةُ مَصْدور، فنفثها مُتلاحقة، فلا يُعْزَلُ بعضُها عن بعضٍ بمُداخَلةِ الرَّدِّ، مهما كان جوابُه؛ لأنَّ المطلوبَ أنْ تَسْترسِل النَّفْسُ في هذا المقامِ الصَّعْبِ، وهذا الموقفِ الصَّعْبِ، وأنْ تُحدِّثَ بما تجِدُهُ وبما تراهُ أفْضَى بها إلى هذا الموقفِ الصَّعْبِ مِن غيرِ حَبْسِه.

وجوابُ السُّؤالِ الثّاني: أنَّ القرآنَ لم يجعَل قولَ النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الثّالثَ في التَّرتيبِ؛ لِما في ذلك مِن

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 367.

نَقْضِ التَّرتيبِ، وهو التَّحسُّرُ على التَّفريطِ في الطّاعةِ، فهذا إقرارٌ بالخطأ، وإدانةٌ للنَّفْسِ، ثم جالَ في النَّفْس معنًى آخَرُ، وهو التَّعلُّلُ بفَقْد الهدايةِ، فقد خُذِلتْ، ولم يُصِبْها توفيقُ اللّه وهُداهُ، ولم يَبْقَ بعدَ ذلك إلّا تمنّي الكرَّة؛ لتكونَ مِن الصّالحين، وثمَّة جوابٌ ثانٍ، وهو أنَّ القولَ الثّالثَ معناه واضِحٌ في أنَّه النِّهاية؛ لأنَّ تمنّيَ الكرَّة هو آخِرُ المعاني، وليس مِن المقبول أنْ تتمنَّى النَّفْسُ الكرَّةَ؛ لتكونَ مِن المحسنينَ، ثمَّ تقول: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

### سِرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

هذه الآيةُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾: مُصدَّرةٌ بكلمة: ﴿بَلَىٰ﴾، وهيَ حرفُ جوابٍ، مُختصٌّ بالنَّفي، فلا يقَعُ إلّا بعد نفيٍ في اللَّفظ، أو في المعنى - كما هنا - ففُصِلَتْ عمّا قبلَها كما يُفْصَلُ الجوابُ عن السُّؤالِ، وإنْ لم يكُن السّابقُ هنا سؤالًا؛ لأنَّه يُشْبِه السُّؤالَ، ثم إنَّ في: ﴿بَلَىٰ﴾ تقريرًا وتوكيدًا لِما ترجِعُ إليه، وتتعلَّقُ به، فكان بينهما ما يكونُ بين الجملتَيْنِ اللَّتَيْنِ لا محلَّ لهما مِن الإعرابِ مِن كمالِ الاتِّصال[2].

هـذه الآيـةُ مِن تمامِ ما قبلَها

### بلاغةُ موقع: ﴿بَلَىٰ﴾:

كلمة: ﴿بَلَىٰ﴾ حرفٌ لإبطال منفيٍّ، أو فيه رائحةُ النَّفْي؛ لقصد إثبات ما نُفيَ قبلَه، فتعيَّنَ أنْ تكون هنا جوابًا لقول النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لِما تقتضيهِ: ﴿لَوْ﴾ التي استُعمِلت للتَّمنّي مِن انتفاء ما تمنّاه، وهو أنْ يكون اللّه هداهُ؛ ليكونَ مِن المتقين، أي: لم يهدِني اللّه، فلم أتَّقِ، فالآيةُ رَدٌّ ظاهرٌ على قولِ النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بالهداية مجيءُ البرهان والدَّليل والحُجَّة، وقد جاء ذلك في آيات اللّه وكُتُبه ورسلِه، وهذه

هـدايـةُ اللـه متحقِّقة لجميع خلقه

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 416 - 419، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 374 - 376.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 420 - 421.

النَّفْسُ التي قالت: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ نفْسٌ غابَتْ عن المَشْهد الذي جعَل اللّه في كلِّ شيءٍ فيه آية[1].

**سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾:**

تفصيلُ الرَّدِّ على كـذِب النَّفْسِ - وهي تتلقّاه في الدُّنيا - عظيمُ إحْسانٍ إليها

فصَل القرآنُ جملة: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ عن كلمة ﴿بَلَىٰ﴾؛ لأنَّها تفصيلٌ للإبطالِ، وبيانٌ له، وهو مِثْلُ الجواب بالتَّسليم بعدَ المنع، أي: هداك اللّه[2]، وكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ تمهيدٌ لهذا التَّفصيلِ، وتهيئةٌ له، وهذا التَّفصيلُ تحقيقٌ وتوكيدٌ لِما تفيدُه ﴿بَلَىٰ﴾ راجعةً إلى القولِ الثّاني للنَّفْسِ.

**بلاغةُ التَّوكيد:**

الـجـواب مع التَّأكيد يتناسب مع القول والمقام

حقَّقَ القرآنُ مجيءَ الآياتِ، وأكَّدَه بإدخال كلمة: ﴿قَدْ﴾ على فِعْلِ المجيءِ المنظومِ ماضيًا: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾؛ حتَّى يبالِغَ في تأكيدِ مجيء الآياتِ بـ(إنَّ) و﴿قَدْ﴾ وتقديم المسند إليه على الخبر الفِعْليِّ، وذلك لأنَّ القرآنَ قابل كذِبَ النَّفْسِ الكافرةِ الذي يعني: إنكارَها مجيء آياتِ اللّه التي تدلُّها على الحقِّ، فأكَّد لها المجيءَ على الجملة، وراعَى أنَّ الحقائقَ قد انكشَفتْ لها، فقد كُشِف الغطاءُ عنها، وأبصرتِ النَّفْسُ أنَّ الآياتِ آياتُ اللّهِ، وأنَّها الآياتُ التي قد جاءَتْها، ولكنَّها غفلَتْ عنها، فلم يَعُد لكذِبها ولا لإنكارِها قيمةٌ؛ فلأجل ذلك لم يُكثِر القرآنُ مِن عناصر التَّوكيدِ.

**بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾:**

حـجـجُ الـلـه تعالى قامت على جميع خلقه

يجوزُ أنْ يكون إسنادُ المجيءِ إلى الآياتِ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ دالًّا على تشبيهِ الآياتِ بمَن يكونُ منه المجيء، وهو الإنسانُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّخْييليَّةِ، كأنَّ الآياتِ أنفسَها رسلُ اللّهِ إلى النّاسِ؛ إبلاغًا في تقريرِ بلوغِها إيّاهُم، ويجوزُ أنْ يكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 372.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 372.

المجيءُ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً للبلوغ، فمجيء الآياتِ إليه: بلوغُها إيّاهُ، وسماعُه إيّاها، وفَهْمُه إيّاها، والقرآنُ الذي اشتمل على هذه الآياتِ قد نزَل بلسانِ العربِ المخاطبينَ هنا في المقام الأوَّل؛ بحيثُ لا يُعْرِضُ عن هذه الآياتِ إلّا المُستكبرُ الذي يتَّبِعُ هواهُ، ويُؤثِرُ اتِّباعَ الشَّهوة والباطلِ على اتِّباع الإنصافِ والحقِّ، ووجهُ أبلغيَّةِ المجيء وأفضليَّتِه على البلوغ والسَّماع دلالتُه على كمال بلوغ الآياتِ إيّاهُم؛ مشاهدةً وسماعًا وتلقّيًا وفَهْمًا، فقد تمكَّن كلُّ فردٍ مِن سماع الحقِّ وتلقّيه، فكان تكذيبُه واستكبارُه وكفرُه عن علم لا عن جهل، فقد قامت الحُجَّةُ عليه.

### علَّة التَّعبير بالمجيء مادَّةً وصيغةً:

كـان مجيءُ الآيـاتِ ظاهِرًا وواضِحًا جِدًّا

إذا كان أهلُ اللُّغة قد قرَّروا أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، وأنَّه قد يُقال باعتبار القَصْد؛ وإنْ لم يكُن منه الحصولُ، وأنَّ المجيءَ عكسُه، ففيه صعوبةٌ، ويُقال اعتبارًا بالحصولِ[1]؛ فإنَّ قَصْدَ الدَّلالةِ على خطَر إتيانِ الآياتِ - الَّتي فيها سيما الخطابِ السماويِّ الحقِّ - وشرفَهُ وعظمتَهُ؛ إذ بالآيات سعادةُ الدّارَيْن، وعلى نَفاذِ مجيئها إنَّما يكون بالتَّعبيرِ بالمجيء دونَ الإتيانِ، ولَمّا كان سياقُ الكلامِ للرَّدِّ على الكذِب والإنكارِ في حالِ العذابِ بعدَ زوال فرصةِ العمل في الحياة الدُّنْيا، فكان الغرضُ إثباتَ المجيء في زمان ما قبل العذابِ؛ نُظِم المجيءُ فِعْلًا ماضيًا.

### دلالة تسلُّطِ المجيء على ضمير المخاطَب:

الإبلاغُ في إقامة الـحُـجَّـةِ على المُـكـذِّبِ الكافرِ إبلاغٌ في تعذيبِه

كان مِن الممكن أن يقول القرآنُ: (قد جاءت آياتي، فكذَّبت بها)، بإسناد المجيء إلى الآيات، دونَ تسليطِه على ضميرِ المخاطَب، بقرينة قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ولكنَّ القرآنَ سلَّطَ المجيءَ على ضميرِ المُخاطَبِ الكافرِ الكاذبِ المُكذِّبِ

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

المُنكِر؛ للنَّصِّ على وصولِ الآيات إليه، وعرْضِها عليه؛ كأنَّ الآياتِ تقصدُ كلَّ فردٍ على حدةٍ، وأنَّ الآياتِ كأنَّها جاءَت تُعالِجُه هو، وتهديه هو، وترعاه هو، وتدخلُ في شكِّه وريْبِه وظُلْمتِه هو، وهذا إبلاغٌ في الرَّدِّ، تبقَى معه كلُّ حسرةٍ تُحيط بهذا الكافر.

**بلاغة الالتفات في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾:**

في الآياتِ السّابقةِ كان الحديثُ عن النَّفْسِ الكافرةِ بطريقِ الغَيْبةِ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: 56] - ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ - ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾، وفي هذهِ الآيةِ انتقَل الأسلوبُ إلى طريقِ الخطابِ: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾ ﴿فَكَذَّبْتَ﴾ ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ ﴿وَكُنتَ﴾؛ لأنَّ المواجهةَ أبلغُ في الرَّدِّ وتكذيبِ الكذبِ، وأدلُّ على الغَضَبِ.

فـي الالـتـفـات إيـقـاظٌ لـنَـفْـسِ المُتلقّي؛ فيتمكَّنُ المعنَى في نفْسِه

**علَّة التَّعبير بالآية:**

جعَل القرآنُ فاعلَ المجيءِ الآياتِ، وهي جمعُ آية، وفي الإتيان بها - دونَ التَّعبير بلفظ القرآنِ أو وصفٍ مِن أوصافِه كالهُدَى ونحوِه - إشارةٌ إلى أنَّ أهل الكفرِ قد علِموا الحَقَّ والهُدَى مِن هذه الآياتِ، فهي الجهةُ التي توصِّلُ إلى الله، وتدلُّ على الله، ويقوَى هذا المعنى بإضافتها إلى ضميرِ الجلالة.

الآيـــاتُ مِـن شـأنِـهـا أنْ تـعـرِضَ عليهم الحقَّ والهُدَى؛ ليتثبَّتوا مِن ذلك فيها

**دلالةُ جمع المؤنَّث السالم:**

لم يجعلِ القرآنُ فاعلَ المجيءِ آيةً واحدةً، بل جعلَه آياتٍ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ معاني هذه الآياتِ بأحوالِهم، وعلى تعاضُدِ وتناصُرِ أكثرَ مِن آيةٍ على حقيقةِ التَّوحيدِ، وذلك أبلغُ في الرَّدِّ على كذِب النَّفْسِ الكافرةِ في ادِّعائِها عدمَ هدايةِ اللهِ إيّاها إلى الحقِّ.

إذا كثُرت الآياتُ الـدّالَّـةُ؛ كـانَ المُستدَلُّ عليهِ عظيمًا

**دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتِى﴾:**

جاءت الإضافة إشارةً إلى كمالِ ظهورِ التَّوحيدِ والألوهيَّةِ الحَقَّةِ في هذهِ الآياتِ التي تدلُّ على وحدانيَّة الله تعالى.

### معنى الفاء، ودلالة التَّعبير بها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبْتَ﴾ تُسبِّبُ، وتُرتِّبُ، وتعطفُ: (كذَّبت) على: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ بلا مهلة، وهذا فيه إشارةٌ إلى الحماقة والإصرار والعناد؛ لأنَّ شأن العاقل إذا جاءَتْهُ الآياتُ أنْ يتريَّثَ، ويدرس، ويراجع، ويتدبَّر، ويتأمَّلُ، ولا يُبادِر بالتَّكذيب، وفيه تكذيبٌ لقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾؛ لأنَّ المعنى: أنَّني هديْتُك بآياتي وحُجَّتي وسُلطاني، ولكنَّك لم تهتدِ، وبادرتَ بالتَّكذيبِ[1].

**الفاءُ رتَّبَت وعطفت وسبَّبت**

### علَّةُ التَّعبير بالتَّكذيبِ مادَّةً وصيغةً:

جعَل القرآنُ المُرتَّبَ على مجيء الآياتِ التَّكذيبَ بها؛ لأنَّ هذه الآياتِ هي آياتُ القرآنِ العظيم، وهذا القرآنُ هو الصِّدْقُ المُكذَّبُ به في قوله تعالى في سياقِ السِّباقِ البعيد: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: 32]، وهذا ممّا تأسَّسَتْ عليه السّورةُ في الحديثِ عن العاصينَ المخالفينَ فيها الذين تدعوهم السّورةُ إلى مقصودها الأعظم، في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: 2 - 3]، ونظَم القرآنُ التَّكذيبَ فعلًا ماضيًا؛ لأنَّه من وصفِ حالِ النَّفْسِ الكافرةِ القائلةِ كذبًا على الله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ من وصفِ حالها في زمانٍ ما قبل زمانِ إتيانِ العذابِ.

**الكذبُ والتَّكذيبُ ضِدُّ إخلاصِ العبادةِ لله وحده**

### دلالةُ تعدّي التَّكذيبِ بواسطةٍ:

عدَّى القرآنُ تكذيبَ الكافرِ إلى آياتِ الله تعالى بحرفِ الباءِ، وفِعْلُ التَّكذيبِ يتعدَّى بنفْسِه، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 372 - 373.

[سبأ: 45]. وقولِه سبحانه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمر: 9]، وفي التَّعدّي بواسطةٍ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ مِن شأنِها ألّا تُرفَض، وتُردَّ، فليس مِثْلُها يُكذَّبُ، ويَتسلَّطُ عليه التَّكذيبُ؛ حتّى إنَّ القرآنَ لم يُسلِّط عليها التَّكذيبَ مباشرةً، وإنَّما تسلَّطَ عليها بواسطةٍ، ولكنَّ القوم تجرَّؤوا على الله غيرَ مُبالين بعواقب ذلكَ.

أهـــلُ الـكـفـر مِـــن شـأنـهـم أنْ يـتـجـرَّؤوا عـلى آيـات الله بتكذيبها

### معنى الباء، ودلالة التَّعبير بها:

حرفُ الباءِ لا يُفارِقُه معنى الإلصاق والاختلاطِ، فيدلُّ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾ على أنَّ التَّكذيبَ قد كان منهم، وهم مُتلبِّسون بالآيات، وهم يعلمون، ويعرفون أنَّها آياتُ الله الذي خلَق السَّماوات والأرض، فتكذيبُهم قد كان عن عِلْم لا عن جَهْلٍ، فقد كان رفْضًا وإنكارًا وانصرافًا عن الحقِّ بعدَ ما تبيَّنَ، وتدلُّ أيضًا على أنَّ التَّكذيبَ قد أحاطَ بالآياتِ، وأنَّه كأنَّه مُؤسَّسٌ على بُغْضِ هذه الآياتِ، وعدمِ قَبولِها بالكُلِّيَّةِ، وهذا يعني تعمُّدَ تكذيبِ الآياتِ والجرأة عليها.

الباءُ تكشفُ عن مـوقـعِ الآيـات في نـفـوس أهل الكفر

### بلاغةُ الوَصْلِ بالواو:

قولُه سبحانه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ معطوفٌ بالواوِ على قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡتَ﴾، فهو داخلٌ معَه في التَّرتيبِ بلا مهلةٍ، والواوُ تفيدُ مُجرَّدَ الجَمْع مِن غير إشارة ترتيب، وهذا يعني: أنَّه يُمكن أنْ يكون كذَّبَ، واستكبَر، ومُمكنٌ أنْ يكون استكبر، وكذَّب، وأنَّ هذا الاحتمالَ يجعلُ الكلمةَ مُصوِّرةً لأنفُسٍ كثيرةٍ، فمِن النّاسِ مَن دعاهُ استكبارُه إلى التَّكذيبِ، فاستكبَر، وكذَّب، ومنهم مَن بادَر بالتَّكذيب، وأعانَه عليه كِبْرٌ في صدْرِه[1]، والجملتانِ المُتعاطفتانِ كلٌّ منهما خبريَّةٌ في اللَّفظِ والمعنى، والمسندُ إليهِ فيهما واحدٌ، وزمنُ الفعلين فيهما واحدٌ، فكلُّ ذلك ممّا حسَّن الوصل بينهما.

الـــكـــذِبُ والاسـتـكـبـارُ قرينانِ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 373.

### علَّةُ التَّعبيرِ بالاستكبار مادَّةً وصيغَةً:

مُخْلِصُ العبادةِ لـلـه لـيـس في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ

الاستكبارُ هو الامتناعُ عن قَبولِ الحقِّ مُعانَدةً وتكبُّرًا، والكِبْرُ هنا هو كِبْرُ الكُفْرِ والشِّرْكِ، والكِبْرُ بطرُ الحقِّ[1]، فهُم يعرفون أنَّ اللّه هو الإلهُ الحقُّ، ويُقِرّون بأنَّه خالقُ السَّماوات والأرض، ولكنَّهم اتَّخذوا مِن دونه أولياء يعبدونهم؛ ليقرِّبوهم إلى اللّه زلفى، كما في أوَّلِ السّورة، فهذا الكِبْرُ هو الذي منعَهُم مِن إخلاصِ العبادةِ للّه ربِّ العالمينَ؛ لذلك اقترَن بالتَّكذيبِ، وقد كان مانعًا قويًّا شديدًا؛ لأنَّهم كأنَّهم طلبوه، وأوجدوه، على ما تدلُّ عليه صيغةُ الاستفعالِ، وقال البقاعيُّ: "﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾، أي: عدَدْتَ نفسَكَ كبيرًا عن قَبولِها"[2].

### علَّة التَّعبير بالكَوْنِ الماضي:

التَّكذيبُ والاستكبارُ رذيلتانِ عظيمتا الأثَرِ خطيرتا النتيجة

كان الظّاهرُ أن يُقالَ: (فكذَّبت بها، واستكبرت، وكفرت)؛ ليتَّسِق البيانُ عن كفره مع البيان عن تكذيبِه واستكبارِه؛ ولكنَّ نظْمَ الكفرِ فعلًا لا يُبينُ عن حقيقةِ كُفْرِ المُحدَّثِ عنه، وإنّما يُبينُ عنه ما عليهِ التَّنْزيلُ، ومنه التَّعبيرُ بمادَّةِ الكَوْنِ الَّتي تدلُّ على أنَّ تكذيبَ المُحدَّثِ عنه واستكبارَه نتج عنهما أنْ كان الكُفْرُ مِن طَبْعِه ودَيْدَنِه وشأنِه وجزءًا مِن ماهيَّته، كأنَّه جِبلَّةٌ له؛ لشِدَّة توغُّله فيهما، وحرصِه عليهما؛ لأنَّ كلمة: (كان) في مِثْل هذا الموقع تدلُّ على أنَّ خبرَها جزءٌ مِن ماهيَّتِها، ووراء هذا إشارةٌ إلى معنًى جليلٍ، وهو أنَّ حقيقةَ الكفر يُفْضي إليها رذيلتانِ، هما: المسارعةُ بالتَّكذيب مِن غير تدبُّر، والاستعلاءُ والتَّكبُّرُ الذي يَحول دون التَّدبُّر والتَّبصُّر والتَّعقُّل، وحيثما رأيتَ الكفرَ، فاعلم أنَّ وراءَه رذيلةَ الاستعلاءِ الَّتي تُصيب القلبَ بالعَمَهِ، ورذيلةَ المسارعة إلى التَّكذيب التي تخطفُ الحقيقة مِن تحتِ نور العقل، وتَذْهب بها

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.

بعيدًا، فيكْذِب المُكذِّبُ مِن غير تعقُّلٍ، ويُكذِّب بالصِّدق، ويكون بذلك مِن أظلمِ الظّالمين[1].

### سِرُّ العُدول عن الإفراد إلى الجَمْعِ:

العدولُ إلى خلافِ الأصلِ تصويرٌ لحقيقة كفرِهم وأصلِه

آثرَ القرآنُ نظم صفةِ الكفرِ جَمْعًا: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فـ﴿مِنَ﴾ للتَّبْعيضِ، أي: وكنتَ بعضَ الكافرينَ، وإيثارُ الجمعِ - دون الإفراد - أشدُّ دلالةً على الاتِّصافِ بالكُفْرِ مِنَ الأصلِ، فقد صارَ واحدًا مِن المَشْهورينَ بالكُفْر، العريقينَ فيه، الذين الكفرُ دأْبُهُم وعادتُهُم، وهذا يعني: أنَّ المُحدَّثَ عنه سارَ على دُروبِهِم، وأنَّه سيكون واحدًا منهم في الآخرةِ أيضًا.

### علَّةُ التَّعبير بوصف الكُفْرِ:

الكفرُ مُسبَّبٌ حتْميٌّ للتَّكذيبِ بالآيات، والاستكبار عنها

كانَتْ نتيجةُ التَّكذيبِ والاستكبارِ الاتِّصافَ بالكُفْرِ؛ لأنَّ الكُفْر سَتْرُ الحقِّ الذي قامَتْ على إثباتِه الدَّلائلُ بسَتْرِ هذه الدَّلائلِ وتغطيتِها، فهو الأشكلُ والألصقُ بذلك التَّكذيبِ، والاستكبارُ علَّةٌ للتَّكذيبِ، وهذا راجِعٌ إلى اقترانِ الكذبِ والكُفْر في أوَّل السّورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: 3]، وعلى كلٍّ فالكفرُ هو وصفٌ لِما آلَ إليه التَّكذيبُ والاستكبارُ.

### بلاغة (ال):

أهلُ الكُفْرِ جِنْسٌ وحْدَهُ

نظَم القرآنُ خبرَ الكونِ مُعرَّفًا بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا وصفُ القرآن لهم، وذلك في وقتِ إتيانِهم العذابَ، فالأوْلى الحَمْلُ على الجِنْسِ، أي: وكنتَ مِن جِنْسِ الكافرينَ الذي عُرِف بالكُفْر وشُهِر به[2]، وهذا يعني: أنَّه صارَ على طريقةِ هذا الجِنْسِ، وسلَكَ مَسْلَكَهُ، فلَمّا كان واحدًا منهم في الحياة الدُّنْيا عقيدةً وعملًا؛ كان واحدًا مِنهم في الآخرة جزاءً وعقابًا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 465، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 373 - 374.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 373.

### سِرُّ حذف مُتعلَّق ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

هؤلاءِ الكافرونَ كفَروا بكلِّ أجزاءِ الإيمانِ

قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: جمعُ كافرٍ اسمُ فاعلٍ، ومتعلَّقُه محذوفٌ، أي: وكنتَ مِن الكافرينَ بالآياتِ، أو الكافرينَ باللهِ، وفي الحذفِ معنى عموم المُتعلَّق؛ تصويرًا لكمال رفضهم للتَّوحيد والإيمانِ، فهُم كفَروا بكلِّ شيء يتعلَّقُ بالصِّدْق؛ لَمّا جاءَهُم، وكذَّبوا بكلِّ شيء في الآياتِ، فهذا الحذفُ مُؤسَّسٌ على تعدّي التَّكْذيبِ بالباءِ إلى آياتِ اللهِ.

### بلاغة اللَّفِّ والنَّشْرِ:

مـع تـشـويـش الـنَّـشْـرِ تلتفت نفسُ المُتلقّي، فيتمكَّن المعنى فيها بقوَّةٍ

ذهَب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ في هذهِ الآيةِ وأقوالِ النَفْسِ الثَّلاثة في الآياتِ الثَّلاث السّابقةِ أسلوبَ اللَّفِّ والنَّشْرِ، فقد قوبِل كلامُ النَّفْسِ بجوابٍ يُقابِلُه على عددِ قرائنِه الثَّلاث، وذلك بقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، وهذا مقابلُ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، ثم بقوله: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾، وهو مقابلُ قولِها: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، أي: ليْسَتْ نِهايَةُ أمرِك التَّفْريط، بل أعظمُ منه، وهو الاستكبارُ، ثمَّ بقوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذا مقابلُ قول النَّفْسِ: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فهذه قرائنُ ثلاث، والمعنى: أنَّ اللهَ هداكَ في الدُّنْيا بالإرشاد بآيات القرآن، فقابلْتَ الإرشادَ بالتَّكذيب والاستكبارِ والكفرِ بها، فلا عُذْرَ لك، وكان الجوابُ على طريقةِ النَّشْرِ المُشوَّشِ بعدَ اللَّفِّ؛ رَعْيًا لمُقْتضَى ذلك التَّشْويشِ، وهوَ أنْ يقَع ابتداءُ النَّشْرِ بإبْطالِ الأهَمِّ، مِمّا اشتمَل عليه اللَّفُّ، وهو ما ساقوه على معنى التَّنصُّلِ والاعتذارِ، مِن قولِهم: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ لقَصْد المُبادَرة بإعلامهم بما يدحض معذرتهم، فقوبل بقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، ثم عاد إلى إبطالِ قولهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، فأبْطَله بقوله: ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، ثم أكمل بإبطال قولهم: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، بقوله:

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يورِد القرآنُ جوابًا عن قولِ النَّفْسِ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [الزمر: 56]؛ لأنَّه إقرارٌ، ولو لم يَسْلُك القرآنُ هذا الأسلوبَ في النَّشْر لهذا اللَّفِّ؛ لفاتَ التَّعْجيلُ بدحضِ المعذرةِ، ولفاتَتْ مقابلةُ القرائنِ الثَّلاثِ المُجاب عنها بقرائنِ أمثالِها؛ لِما علمتَ مِن أنَّ الإبطالَ روعيَ فيه قرائن ثلاث على وزن أقوال النَّفْسِ، وأنَّ ترتيبَ أقوالِ النَّفس كان جاريًا على التَّرْتيبِ الطَّبيعيِّ، فلو لم يُشَوَّش النَّشْرُ؛ لوجَب أنْ يُقتصَر فيه على أقل مِن عدد قرائنِ اللَّفِّ، فتفوت نكتةُ المقابلة الَّتي هيَ شأنُ الجدالِ، معَ ما فيه مِن التَّورُّك[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48 - 49.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»